الفصل الثاني

الدراسة العلمية للشخصية

١ ـ العلم والذوق العام (الفكر الدارج).

٢ ـ التوجه العلمي: النظرية وطريقة البحث.

٣ ـ العلاقة المتبادلة بين النظرية والبحث.

٤ ـ بعض طرائق البحث في الشخصية.

ـ الطريقة التجريبية.

ـ الطريقة الترابطية.

ـ طريقة دراسة الحالة.

ـ الملاحظة.

الـدراسـة العلميـة للشخصية

يستعمل علماء النفس الطريقة العلمية لدراسة الفروق الفردية لاعتقادهم بأنها الطريقة الفعالة للوصول إلى معلومات ونتائج دقيقة وقيمة. إن هذا التوجه العلمي سيقودنا بشكل مباشر وأكيد إلى تفسيرات دقيقة عن الشخصية أكثر من التوجهات المعتمدة على التخمين العقلي والتأمل الذاتي أو الذوق العام والحس العام ، ولا يعني هذا ، التقليل من أهمية هذه الأخيرة لأنها كانت مصدراً هاماً وعملاً للعديد من الفلاسفة والأدباء والمفكرين في وقت ما.

١ ـ العلم والذوق العام أو الفكر الدارج

science and common sence

يعتقد بعضهم أن علم النفس ـ وضمنه علم نفس الشخصية ـ هو ذلك الفرع المعرفي الذي يعكس فقذ ملاحظات الذوق أو الحس العام. ويجادلون بأنه لا يمكن أن يشارك في زيادة تفهمنا لما نعرفه الآن ولا لزوم لبذل الجهد في دراسته. إن العيب الرئيسي في هذا الجدل ، هو أن العديد من نتائج علم النفس تؤيد الانطباع والذوق العام ، ولكن هناك أيضاً ـ عكس ذلك ـ أمثلة كثيرة تثبت خطأ معرفتنا وعدم دقتها وشموليتها رغم أننا لا يمكننا التأكد من صدق هذه الاعتقادات وصحتها حتى نقيسها ونختبرها تجريبياً. لقد وضّح ذلك دارلي ولاتاني darly and latane عام ١٩٦٨ ، وأظهرا أن الثقة المعتمدة على الذوق العام يمكنها أن تؤدي إلى

كارثة لكلٍ منا ، فقد استقصيا الشروط التي تضمنت وجود ضحية في حالة طوارىء كانت بحاجة للمساعدة من الحضور المتفرجين إن اهتمام الباحثين بهذه المشكلة ظهر من خلال الحادث الذي وقع عام ١٩٦٤ عندما كانت هناك شابة اسمها كيتي جينوفز kitty genovese وجدت مطعونة ولأكثر من نصف ساعة في منتصف الشارع بأحد أحياء نيويورك ، بينما كان هناك ٣٨ شخصاً وهم مشدوهون يحدقون ويشاهدون من النوافذ أيضاً ولا أحد اتصل بالبوليس ـ حتى فارقت الحياة قدم معلقو الصحف والمفكرون تفسيرات عديدة لعدم تدخل الناس بأنه «انحطاط أخلاقي moral decacy» أو «يأس وجودي existential despaire» إن دارلي ولاتاني قدَّما تفسيراً آخر. إن شرحهما كان مرتبطاً بعدد الشهود الذين لاحظوا الحادث على العكس من اعتقاد الحس العام بأن الذين شاهدوا الحادث الطارىء مرتبط بكثرة احتمال تقديم المساعدة للضحية. إنهما ناقشا الأمر من وجهة أخرى ، حيث أن كثرة المشاهدين هناك مكان الحادث يؤدي إلى قلة احتمالية تقديم المساعدة . إن حدس وتخمين الناس الحضور اعتمد على أساس أن كثرة المتفرجين هناك تؤدي إلى مستوى أكبر من المسؤولية للتدخل وستلاحظ من خلال شخص ما سيشاركونه الأمر. إذا كان هناك شخص واحد فقط يشاهد الحدث ، فإن واحب التدخل والمساعدة يقع عليه وحده ، وهكذا فإنه كلما كثر عدد المشاهدين تقل احتمالية تقديم المساعدة للضحية.

لقد أجرى هذان الباحثان دراسة مخبرية للتأكد من صحة فرضيتهما. فقد خلقا وضعاً طارئاً في المخبر بحيث كان هناك شخصٌ ما يتعرض لنوبة صرع. وفي أحد الشروط ، أخبر المفحوص بأن هناك الضحية فقط (الذي يتعرض للنوبة) ، أما في الشرط الثاني فقد أُخبر المفحوص بأنّ مع الضحية شخصاً آخر موجود ، أما في الشرط الثالث فقد أُخبر بأن هناك ستة أشخاص (إضافة إلى المفحوص والضحية يوجد أربعة أشخاص

آخرين) ، وقد تبين بأنه كلما كبر العدد فإن احتمالية تدخل المفحوص لمساعدة الضحية تقل وكذلك رد فعله (كما هو مبين في الحدول «١») وقد أختبرت هذه الفرضية في سياقات عديدة وأظهرت نفس النتيجة.

حجم المجموعة	حجم العينة	النسبة المئوية لاستجابتهم تقديم المساعدة	الوقت بالثانية
٢ (المفحوص + الضحية)	١٣	%٨٥	٥٢
٣ (المفحوص + الضحية + شخص آخر)	٢٦	%٦٢	٩٣
٦ (الفحوص + الضحية + ٤أشخاص آخرين)	١٣	%٣١	١٦٦

الجدول ١: تأثير اختلاف حجم الجماعة في مدى وسرعة تدخلهم لتقديم المساعدة

٢ ـ التوجه العلمي: النظرية وطريقة البحث

Theory and Research methodology

سينصبُّ اهتمامنا حالياً على طبيعة العلم ، والطريقة التي يتم من خلالها وضع النظرية وبناؤها واختبارها في البحث التجريبي.

ما هو العلم؟ بشكل عام ، يهتم العلم بوصف وشرح الحوادث ، والتنبؤ بها وضبطها أو التحكم بها. إن محصلة جهود العديد من الباحثين ، يكون لجمع المعرفة المنظمة اعتماداً على ملاحظة الظواهر المدروسة. إن العلم في جوهره يتضمن عمليتين أساسيتين هما: النظرية والمنهج أو طريقة البحث.

٣ ـ العلاقة المتبادلة بين النظرية والبحث

النظرية العلمية هي نظام من المفاهيم يضعها الباحث للمساعدة في إعطاء معنى للمعلومات الموجودة عن الظاهرة المدروسة والأكثر أهمية لتساعد في التنبؤ بالعلاقات غير الملحوظة للأحداث والظواهر.

إن النظرية تتضمن أساساً ، عدداً من الفرضيات المترابطة والثابتة داخلياً internally consistent والتي نشأت منها النظريات ، والقابلة للاختبار والقياس بسبب تعريفاتها الإجرائية operational definitins وهكذا فإن المفاهيم concepts في الفرضيات hypotheses يتم تعريفها بمصطلحات دقيقة وإجرائية يمكن قياسها واختبارها. مثلاً ، مستوى تقدير الفرد لذاته يمكن قياسه عند ترتيب إجابات الفرد في سلسلة من المواد أو الموضوعات في الاختبار. بالإضافة إلى فائدة التعريفات الإجرائية من أجل الاختبار والقياس ، فإنها تزود بأساس موضوعي بين الباحثين الذين يستخدمون المفاهيم لصياغة نظريات جديدة أو إعادة ، استخدام النتائج في بحوث أخرى. ففي نظرية التنافر (عدم التناسق) المعرفي cognitive dissonance التي وضعت من قبل عالم النفس ليون فيستنجر leon festinger ، كانت الفرضية الرئيسية بأن الناس يميلون إلى الثبات في اعتقاداتهم وسلوكهم ، في حين عدم الثبات أو عدم التطابق بين معارفهم عن أنفسهم أو الآخرين تخلق حالة تسمى عدم الانسجام أو التنافر المعرفي. فالمعرفة تشمل المعتقدات والاتجاهات والمشاعر والسلوك حول بيئة الشخص أو ذاته. وحالما تنشأ فإن هناك ضغطاً لخفضها بطريقة ما. فالمدمنة على التدخين مثلاً ، تخبُر التنافر عندما تتعلم ـ وهي تقرأ جريدة الصباح وتدخن السيجارة الخامسة ـ أنّ البحث الطبي قد بيَّن أن الذين يدخنون بكثرة هم أكثر عُرضة للسرطان بما يعادل عشر مرات عن غير المدخنين حقيقة إن رغبتها بالتدخين متنافرة وغير منسجمة مع التقارير الطبية بأنها مؤذية للصحة. إن التنافر المعرفي هو التناقض وعدم الانسجام بين معتقدات الفرد وسلوكه الظاهر. وقد تم اختبار نظرية فيستنجر بطريقة تجريبية. أما أهم طرائق البحث التي يعتمدها علماء نفس الشخصية فهي التجريبية والترابطية ودراسة الحالة والملاحظة. وهذا ما سنشرحه الآن.

٤ ـ بعض طرائق البحث في الشخصية

methodology

أ ـ الطريقة التجريبية experimental method.

من أجل اختبار فرضيات النظرية بدقة ، يستخدم الباحثون الطريقة التجريبية وخاصة المخبريَّة. ففي مثل هذه الأوضاع يتحكم المجرِّب (الباحث) بفعالية ببعض المتغيرات variables ، حيث يغير في بعضها بشكل نظامي ويفحص تأثيرها على متحولات أخرى فالمتحولات التي عولجت بفعالية وتغيَّرت هي متغيرات أو متحولات مستقلة independent variables والأخرى هي المتحولات التابعة dependent variables وهي التي يرغب الباحث في وصفها والتنبؤ بها وتسمى تابعة لأنها تتبع أو تعتمد على حدوث ظروف سابقة (وهي المستقلة) وهكذا فإن المتغير الذي نحاول أن نستكشف تأثيره هو المتغير المستقل ، أما السلوك أو الاستجابات responses التي نحاول أن نتبين ما يحدث بها من تغيُّر فتسمى المتغير التابع. وقد يتم التغيُّر المنظم في المتحول المستقل بطريقتين:

١ ـ الإظهار التدريجي لكميات متفاوتة الشدة أو العدد من المتغير المستقل ، كأن ندرس تأثير الضوء على انقباض أو إغماض العينين عند الإنسان بتعريضهما لكميات من الضوء تزداد تدريجياً وفق مقاييس القوى الكهربائية (الفولت). أو ندرس تأثير كمية المادة المدروسة على الحفظ والتذكر من خلال قوائم لفظية متفاوتة الأطوال.

٢ ـ عن طريق تكوين مجموعات متنوعة من الأشخاص حسب درجاتهم على أحد المقاييس أو حسب خضوعهم لجوانب من المتغير المستقل. هنا تستخدم المجموعة الضابطة control group التي لا ينالها التغير ، وتمكننا من المقارنة مع المجموعة التجريبية المدروسة

experimental group وبذلك يتاح لنا الحكم على التغير الحاصل في هذه المجموعة الأخيرة (التجريبية).

ب ـ الطريقة الترابطية correlational method.

إن أكثر بحوث الشخصية ، ترابطية في طبيعتها. وهي تتضمن إنشاء علاقات بين متحولين. مثلاً ، هل الحاجة للإنجاز مرتبطة بأداء الطالب؟ هل الدافع للإنجاز والتحصيل مرتبط بمستوى القلق عند الشخص؟ هل هناك علاقة بين سوء الحكم وتقدير الذات؟ إن اتجاه وحجم العلاقة في هذه الطريقة يتحدد من خلال معامل الترابط correlational cocfficient حيث يتبين أن درجات أحد المتحولات مرتبطة بدرجات في متحول آخر. فالترابط الإيجابي يشير إلى أن الدرجات الدنيا في أحد المتحولات مرتبطة بدرجات دنيا في المتحول الآخر ، أو العكس. مثال ذلك ، فقد أشارت إحدى الدراسات أن الدرجات العليا في مقياس التوكيدية أو الدوغماتية dogmatism (اختبار وضع لقياس التعصب) كانت مرتبطة بدرجة عالية بالتقرير الذاتي عن القلق. وهكذا فالناس المتعصبون الذين يتميزون بدرجة عالية من الدوغماتية (التوكيدية والحزم) يُبدون درجة عالية من القلق ، بينما غير المتعصبين والذين هم أقل دوغماتية كانوا أقل قلقاً. هذا بالنسبة للترابط الإيجابي positeve correlation (حيث الزيادة في أحد المتحولات يرافقها زيادة في المتحول الآخر) ، أما الترابط السلبي negative correlation فالدرجات العليا في أحد المتحولات ترتبط بدرجة دنيا في المتحول الآخر. ومثاله ، إن الذين يميزون بالدوغماتية (التوكيدية) العالية عُرضة لتقدير الذات المنخفض ، وبالعكس فإن دوي الدوغماتية المنخفضة عندهم تقدير ذات عالٍ. فالترابط الإيجابي التام بين المتحولين يُكتب على الشكل التالي (+١) والترابط السلبي التام (ـ١) أما انعدام الترابط فيشار إليه بالصفر (٠) إن الترابطات السلبية والإيجابية التامة أو الكاملة في الواقع نادرة الحدوث (انظر الشكل ٢ ـ١).

إن هذه الطريقة في البحث ، لا تزودنا بالمعلومات اللازمة حول أي المتغيرات هي سبب للأخرى ، عكس الطريقة التجريبية التي تسمح لنا بتحديد العوامل المسببة للمتحولات التابعة بدرجة عالية من الصدق.

لقد قدم سينجر singer ١٩٦٤ مثالاً جيداً لبحث ترابطي في الشخصية في دراسة صممت لتحديد فيما إذا كانت هناك علاقة بين أساليب تعامل الطلاب ودرجاتهم أو تحصيلهم العلمي. اعتمدت الدراسة على اعتقاد الطلاب غير المتخرجين بأن بعض الطلاب حصلوا على درجات عالية بسبب أسلوبهم وطريقة تعاملهم مع الأساتذة. وقد طلب سينجر عدداً كبيراً من الطلاب كي يجيبوا على اختبار (الورقة والقلمpaper and pehcil test) سماه اختبار الماكيافيلية machiavelciahism scale وذلك لقياس الفروق الفردية في طريقة التعامل وأساليبه في المواقف المختلفة. ومن المواد التي يضمها الاختبار «من الحكمة أن تبدي الإطراء والمدح للناس المهمين» «الطريقة الفضلى للتعامل مع الناس هي أن تقول لهم: ماذا يريدون سماعه؟». وبعد جمع درجات الاختبار ومعالجتها باستخدام معامل الترابط تبين أن الترابط هو ٣٩٪ للرجال ولكن ليس للنساء. إن الرجال الذين استعملوا فنون البراعة للحصول على غايتهم قد حصلوا على معدل نقاط أعلى. ولكن ماذا بالنسبة للإناث؟ وهل يعني ذلك أن النساء لا تظهرن فنون وأساليب الإطراء والبراعة في المعاملة للوصول إلى أهدافهن؟ لقد قال سينجر: إن النساء من الممكن أن يستخدمن نفس الأسلوب ، ولكن استخدامهن لطريقة الجاذبية الجسدية والمظاهر أكثر من الحيل اللفظية والإطراء. لقد اختبر الباحث فرضيته لتحديد مدى استعمال الإناث لمظاهرهن وجاذبيتهن الجسدية ودرس ترابطها مع معدل النقاط العالية. فالترابط الحاصل كان + ٣٧٪ بالنسبة للنساء البكر ، ولكن الترابط غير ذي مغزى (ـ٠٤, ٠) بالنسبة للإناث أولات الترتيب الثاني والثالث ولادة في الأسرة والسؤال الآن لماذا وجد الترابط للنساء البكر

(الولادات الأولى بالأسرة) وليس للأخريات أيضاً؟ إن من الصعب الإجابة بدقة ولكن دراسة أخرى بينت أن الإناث البكر اعتدن الجلوس في مقدمة الصف بالمدرسة ليشاهدن المدرس وليقابلنه في نهاية الدرس لمناقشته ، أكثر مما هو الحال عند الأخريات .

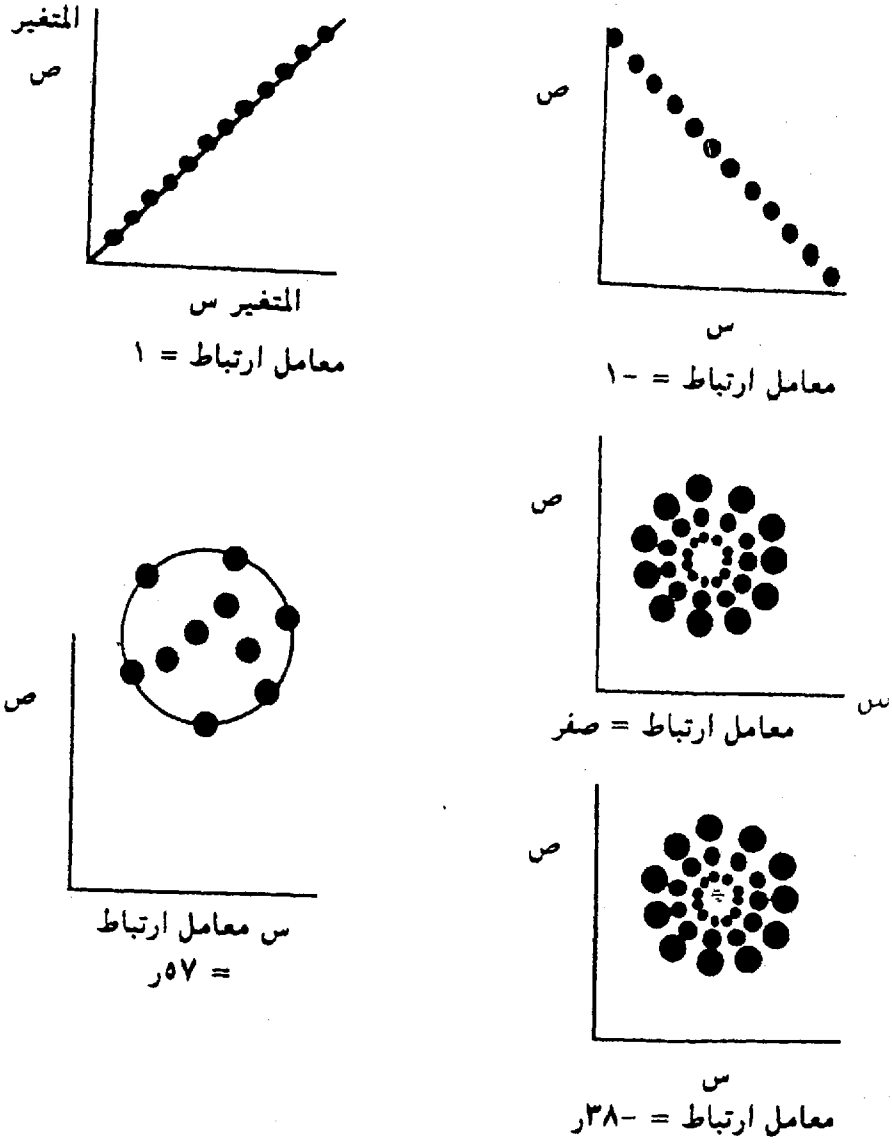

الشكل ٢ ـ ١ يبين أشكالاً مختلفة من درجات الترابط بين متحولين .

إن النتيجة النهائية لمثل هذه الدراسات هو أن طلاب المعاهد والجامعات وطالباته ، ربما يستخدمون أساليب البراعة للحصول على غاياتهم ولكن نوعية هذه الأساليب تختلف باختلاف الجنس ، إن علماء النفس يستخدمون العديد من تقنيات الترابط في بحوثهم ، بعضها أكثر عرضة للجدل من طريقة بيرسون. فهناك مثلاً الترابط المتعدد أو المضاعف والترابط الجزئي ، والتحليل العاملي ويجب أن نشير إلى أن ديموند كاتيل قد اعتمد على التحليل العاملي ومعامل الترابط في دراسته للشخصية وتحديد السمات المختلفة التي تكونها ، كما سنبين ذلك بالتفصيل لاحقاً.

جـ ـ طريقة دراسة الحالة case - study method.

إن الدراسة المعمقة لفرد ما وسلوكه لفترة من الزمن وفي أوضاع مختلفة تسمى تاريخ الحالة أو دراسة الحالة. وغالباً ما تسمى الملاحظة الإكلينيكية لأنها تجرى في البحوث الطبية والعيادية النفسية لتقدم وصفاً موسعاً ومعمقاً لسلوك الفرد. إن أحد أهم ميزات هذه الطريقة ، أنها تسمح لنا بإجراء تشخيص وعلاج متكامل وغني للحالة المدروسة. في حين تزودنا الدراسات التي تستخدم الطريقة التجريبية بفحص الفروق الفردية بين الناس ، فإن دراسة الحالة تزودنا بوصف لفردية الشخص ، ثبات أو عدم ثبات سلوكه وكذلك تنظيم خبراته ، لأنها تركز على السمات المميزة له. ومن سلبيات هذه الطريقة أنها لا تسمح لنا بإجراء الضبط أو التحكم بالمتغيرات كما يحدث في المخبر تجريبياً. وهذه أهم نقاط الضعف فيها ، لأن استنتاج حكم سببي يكاد يكون مستحيلاً. ولكنه من جهة ثانية مصدر قوة لأن هذه النتائج قد تدفع إلى وضع فرضيات جديدة ولمزيد من البحوث.

إن أفضل مثال لهذه التقنية ، هو استخدام فرويد لها في تحليل شخصية ليوناردو دافنشي ، مع تركيزه الخاص على انحرافه الجنسي

(الجنسية المثلية) بالرغم من أن العلاقات الجنسية مع الأولاد كانت محرَّمة قانوناً. لقد اهتم فرويد بجمع معلومات عن حياته اللاشعورية في محاولة لتحديد الصحيح من الكاذب في هذا السلوك لدافنشي. ومنذ أن حدد فرويد أن سنوات الطفولة الأولى هي أساس تكوين شخصية الفرد مستقبلاً ، فإنه ركز على الحياة المبكرة لدافنشي. وبالرغم من تعجبنا من أصالة هذه المعطيات التي توصل إليها ، فإنها تساعد في وضع فرضيات عامة قابلة للقياس. ويجب ألاَّ نفترض بأنها تزودنا ببرهان تام للنظرية إلاّ أنها لا تؤيد العكس.

د ـ الملاحظة الطبيعية naturalistic abservation وفيها يهتم عالم النفس بمشاهدة السلوك ودراسته كما يحدث في موقفه الطبيعي وبدون أن يحدث أي تشويش لهذا السلوك قدر الإمكان. وبذلك لا يتدخل الباحث ولا يتحكم بالظروف إطلاقاً ، وإنما يسجل ما يصدر عن المفحوص من سلوك وتستخدم هذه الطريقة في دراسة السلوك الذي لا يمكن استحضاره للمخبر من أجل التجريب ، ولدراسة السلوك الذي يصيبه التشويه والتحريف إذا حاولنا دراسته بالمخبر ، وكذلك في البحوث التي تمنعنا الضوابط الأخلاقية من إجرائها بالمخبر.

ومن ميزات هذه الطريقة مرونتها وسهولة استخدامها ، والحصول على معطيات كمية وكيفية للسلوك الملحوظ. كما أنها الطريقة الوحيدة في دراسة بعض أنواع السلوك إلا أن أهم عيوبها: تحيز الباحث وعدم نزاهته ، وأخطاء التسجيل ، وعدم قدرة الباحث على تمييز جوانب السلوك المتنوعة (عبد الخالق ، ١٩٨٩).

* * *